الجزء

1

www.hafryat.com

أحمد بان
باحث مصري

قواعد الفكر الإخواني

1

الإرهاب فريضة والاغتيال سنّة

هذا العنوان ليس عنواناً صحفياً زاعقاً، أو رأياً للكاتب في جماعة عاين العالم ولا يزال يعاين إرهاب أفرادها، لكنّه وصف الجماعة لنفسها عبر عضو من أعضائها؛ أبو مصعب السوري أو عمر عبدالحكيم أو مصطفى ست مريم، كلّها أسماء لشخص واحد سوري الجنسية ولد في العام ١٩٥٨، وانتسب لجماعة الإخوان المسلمين في سورية، قبل أن يصبح عضواً قيادياً في «الطليعة المقاتلة» التنظيم المسلح الذي أسسته جماعة الإخوان هناك.

زعيم تنظيم القاعدة أيمن الظواهري يعترف بأستاذية سيد قطب له وإيمانه بأفكاره

الإرهاب أولاً

يذكر الرجل في إطار رواية عمّن علموه من الرعيل الأول من الإخوان المسلمين قائلاً في كتابه «دعوة المقاومة الإسلامية العالمية»: «أُلحقت بدورة تدريبية لإعداد كوادر الجهاز العسكري لتنظيم الإخوان المسلمين، أيام الجهاد والثورة على حافظ الأسد، وكان لي من العمر ٢٢ عاماً، وكان ذلك في معسكر الرشيد التابع للجيش العراقي ببغداد العام ١٩٨٠ (تأمل كيف كانت بعض الحكومات في إطار الصراع فيما بينها تدعم الإرهاب منذ وقت مبكر، ومعلوم بالطبع الخصومة بين فرعي البعث في سورية والعراق في تلك الفترة).

ولما دخل علينا المدرب وكان رحمه الله رجلاً فاضلاً وشيخاً مسنّاً من الرعيل الأول، من الذين بايعوا الشيخ حسن البنا رحمه الله لما كان عمره سبعة عشر عاماً، وجاهد في فلسطين ١٩٤٨ وجرح في القدس وعمل في الجهاز الخاص، وشارك في المقاومة السرية ضد الإنكليز في قناة السويس مطلع الخمسينيات، وصحب سيد قطب وهاجر عن مصر بقية حياته، فكان مدرباً في معسكرات الشيوخ في شرقي الأردن مع منظمة التحرير ١٩٦٩، وانتدب لمساعدة أكثر من حركة جهادية ساندها الإخوان عندما كانوا إخواناً على منهج البنّا وقطب، قبل طاعون الديمقراطية والبرلمان (تأمل الرجل.. لا يفصل بين البنّا وقطب في النهج والسلوك، على ما يحاول البعض إقناعنا به الآن عن وجود تباين بين الرجلين)، فكان يدربنا المواد العسكرية، وكان أوّل ما قاله لنا بلهجته المصرية: إنتوا إخوان مسلمين؟ فقلنا نعم، فقال متأكدين يا بني؟ فقال مشيراً إلى عنقه «يبقى حتدبحوا كلكوا» «موافئين»؟ فقلنا جميعاً والسرور والبهجة

عندما اتصل «السيد الرئيس» بالظواهري

تواصل رئيس مصر الإخواني محمد مرسي مع الظواهري هاتفياً خلال فترة حكمه

تغمرنا «موافقين يا بيه»، فاستدار إلى السبورة وكتب عليها عنوان أولى المحاضرات «الإرهاب فريضة والاغتيال سنة»، وخط تحتها خطاً واستدار لتبدأ الدروس ويبدأ المشوار، فوعينا الدروس وطال المسار وبقيت البشارة والأمل في كرم الله كبيراً لمن قضى نحبه من ذلك الفريق ولم ينتظر، وهذا الذي لخصه الشيخ رحمه الله جزءاً من عقائد هذا الدين وقد افتتحت بها فيما بعد دروسي».

أبو مصعب السوري أحد أهم منظّري القاعدة، وينسب له البعض كتابة مانفستو داعش «إدارة التوحش»، ويعتقد بعض المراقبين أنّه أصبح قائداً عسكرياً في هذا التنظيم.

انتهت رواية الرجل، لكن لم تنتهِ آثارها في واقعنا اليوم، الذي نحت فيه تلك الكيانات الحركية منحى العنف بشكل واضح، وبديباجات وتفسيرات منها هذا العنوان الصادم الذي يجعل الإرهاب بصورته لديهم قتلاً وتدميراً وتمثيلاً وشذوذاً فريضة إلهية، تعالى الله عن ذلك علواً عظيماً.

عرفنا في مسيرة جماعات العنف عناوين متعددة؛ فهذه جماعة الجهاد المصرية، التي كان من زعمائها أيمن الظواهري الذي كان إخوانياً قبل أن يختار لافتة «الجهاد» التي لم تمنعه من أن يؤكد على أستاذية سيد قطب له وإيمانه بأفكاره، «فلقد كانت ومازالت دعوة سيد قطب إلى إخلاص التوحيد لله والتسليم الكامل لحاكمية الله، ولسيادة المنهج الرباني شرارة البدء في إشعال الثورة الإسلامية ضد إعداء الإسلام في الداخل والخارج».

هل كان تواصل محمد مرسي الإخواني رئيس مصر المعزول مع أيمن الظواهري هاتفياً فترة وجوده في الحكم وهو يتزعم أكبر وأخطر تنظيم جهادي وهو القاعدة أمراً طبيعياً؟

البرمجة الإخوانية للعنف بمصر

هل كان اجتماع فصائل السلفية الجهادية في الشيخ زويد في سيناء يوم ٥ تموز (يوليو) ٢٠١٣ في أعقاب ثورة الشعب المصري على حكم الإخوان، وإعلان خارطة الطريق في ٣ (يوليو) ٢٠١٣ وإعلانها الحرب على الدولة المصرية، بعد هدوء في ساحة سيناء طوال فترة وجود الإخوان في الحكم مصادفة؟ أم حديث مرسي عن سلامة الخاطف والمخطوف في معرض تعليقه على اختطاف جنود في سيناء، ثم إرساله لمستشاره الشخصي عماد عبدالغفور للتواصل مع جماعات العنف في سيناء؟ أو الحديث عن تمويل خيرت

إيمان إخوانيّ متجذّر بالعنف

الشاطر رجل الجماعة القوي لمجموعات العنف في سيناء أمراً طبيعياً ومفهوماً يؤكد أنّ الجماعة ليس لها علاقة بالعنف، أم أنّ الجماعة عبر نصوص مؤسسيها ومنظريها وعبر ممارسة سجلها التاريخ، أكدت أنّ العنف مكوِّن بنيوي في مسيرتها يظهر في حال التمكن ويتوارى في حال التمسكن، في إطار خطاب التقية الذي قربها مرة ثانية من منهج الملالي في إيران؟

هل كان مصادفة ظهور عمليات العنف التي أطلقتها الجماعة عبر ما يسمّى بأجنحة العمل النوعي التي تسمَّت بأسماء مختلفة، سواء العقاب الثوري، أو كتائب المقاومة الشعبية، أو حركة سواعد مصر (حسم)، أو لواء الثورة، أو غيرها من المسمّيات، لتنظيمات صغيرة نشطت في الوادي والدلتا سواء في عمليات قتل لعناصر الشرطة أم القضاة أم غيرهم، بالتوازي مع نشاط جماعة أنصار بيت المقدس التي ارتفعت وتيرة عملياتها بعد خروج الإخوان من الحكم على نحو لافت؟ هل كان دعم منابر فضائية قطرية أو تركية لهذه المجموعات لوناً من ألوان النضال السياسي المشروع؟! هل كان ذلك أيضاً مصادفة أم لوناً من ألوان التكامل بين اللاعبين في ساحة العنف في مصر وخيارهم الاستراتيجي القتل والإرهاب دون مواربة.

قتلت الجماعة العام ١٩٤٨ القاضي أحمد الخازندار في إعلان مبكر عن العداء للسلطة القضائية، ولم يكن حصار أعضائها للمحكمة الدستورية في العام ٢٠١٢ سوى تأكيد جديد على تلك العداوة.

قتلت الجماعة رأس السلطة التنفيذية محمود فهمي النقراشي في العام ١٩٤٨ أيضاً، ولم يكن ذلك سوى تأكيد على نزعة القتل التي تأكدت في مشهد جديد.

الجماعة أكدت أن العنف مكوّن بنيوي في مسيرتها يظهر في حال التمكن ويتوارى في حال التمسكن

قتلت الجماعة أحد قيادات نظامها الخاص السيد فايز عبد المطلب العام ١٩٥٣ بطرد مفخخ، فأكدت ريادتها لهذا اللون من العنف الذي تطور لاحقاً في أفعال داعش والنصرة وغيرها، وكل تلك العمليات الإرهابية اعترف مرتكبوها بها في تحقيقات قضائية تحت ظل قضاء طبيعي مستقل.

حرقت الجماعة ممتلكات اليهود في مصر مع تأسيس «إسرائيل»، فهل كان ذلك لوناً من ألوان الجهاد أم دفعاً لليهود المصريين للهجرة إلى «الدولة الوليدة»؟ هل كانت مصادفة أن تبدأ العمليات ضد اليهود فور تأسيس «الدولة»؟

هل كان العنف دخيلاً على سلوك الجماعة وأفكارها ومقولاتها الرئيسة؟ يجيب حسن البنا الذي يخاطب الإخوان في رسالة المؤتمر الخامس «وفي الوقت الذي يكون فيه منكم معشر الإخوان المسلمين ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها روحياً بالإيمان والعقيدة، وفكرياً بالعلم والثقافة، وجسمياً بالتدريب والرياضة، في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجج البحار، وأقتحم بكم عنان السماء، وأغزو بكم كل عنيد جبار، فإني فاعل إن شاء الله».. وقد فعل، وفعلتها الجماعة مراراً وتكراراً، في تأكيد عملي على إيمانها بالقتل والإرهاب وسيلة لنصرة مشروعها الذي لم يعد ملتبساً ولا غامضاً بعدما أنتج لنا كل تلك الفوضى التي تضرب عالمنا العربي والإسلامي.

2

الثقة بالمرشد كأنه نبي أو ولي

مايزال مشهد المئات من أعضاء جماعة الإخوان وهم يحاصرون مقر المحكمة الدستورية العليا بمصر في نهاية العام ٢٠١٢ وبداية ٢٠١٣، ويمنعون قضاتها من دخولها بعد أن صدرت لهم التعليمات من قيادتهم بالتحرك إلى هناك، في انتظار قرارات مهمة ستنعكس على مستقبل البلاد والعباد في مصر كلها، دون أن يتجشموا عناء السؤال عن تلك القرارات أو يستشاروا فيها أو يقتنعوا بجدواها، مشهداً مثيراً للتساؤل، وهو ليس منفصلاً عن مشاهد أخرى التزمت فيها قواعد الجماعة وشجعت قرارات المرشد، حتى لو تضمنت الشيء ونقيضه؛ مثلما كان عندما أعلن أنّ الجماعة لن ترشح أحداً لمنصب الرئاسة، فامتدح الصف الإخواني القرار وتغزلوا في حكمة ووعي القيادة، وعندما صدر القرار بترشح محمد مرسي أكد الصفّ الإخواني ذاته من جديد قناعته بالقرار وطاعته للقيادة.

بنى التنظيم الثقة في المرشد مستنداً إلى التعسف بفهم النصوص الدينية وإسقاطها على واقعه ثم التوسل بالحيلة والمكر والدهاء السياسي لجعل ذلك ممكناً

قداسة المرشد

ما الذي يدفع تلك الجموع إلى هذه المستوى من الطاعة المطلقة لقيادتها؟ إنها الثقة بالقيادة.. تلك القاعدة التي تبدو أحد أهم القواعد التي بُنيت عليها الجماعة، التي تبدو معها تنظيماً أكثر منه فكرة أو نظرية تجمع الأعضاء؛ حيث يبدو التنظيم حريصاً على تأكيد مكانة وقداسة المرشد في عقول الأتباع أو الجنود، والتأكيد على صيغة التنظيم العسكرية المصبوغة برداء ديني يجعل من المرشد صاحب قدرات فذة تستدعي من الأتباع لوناً من ألوان التقديس، والثقة التي جعلها حسن البنا ركناً من أركان البيعة للملهم الموهوب، كما سماه التلمساني في كتاب عن مؤسس حركة الإخوان، الذي صاغ ركن الثقة بمفردات تكشف نظرة الرجل لنفسه، وكذلك كيف ينبغي أن ينظر له الأعضاء؛ يقول البنا في الركن العاشر من أركان البيعة في (رسالة التعاليم) «وأريد بالثقة اطمئنان الجندي إلى القائد في كفاءته وإخلاصه، اطمئناناً عميقاً ينتج الحب والتقدير والاحترام والطاعة «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً» (سورة النساء)؛ فهو يتحدث عن قائد ملهم وجنود وجيش لا عن دعوة دينية، ولا حتى حزب سياسي تحكمه تقاليد الديمقراطية وتداول الرأي بين أنداد، ولا يخفى الإيحاء الذي يتضمنه الاستشهاد بالآية التي تتحدث عن الرسول الكريم ووجوب طاعته وهو الموصول بهدى السماء!

الثقة بالقيادة هي كل شيء

ثم يفصّل البنا في توضيح معنى الثقة «والقائد جزء من الدعوة ولا دعوة بغير قيادة، وعلى قدر الثقة المتبادلة بين القائد والجنود تكون قوة نظام الجماعة وإحكام خططها ونجاحها في الوصول إلى غايتها وتغلبها على ما يعترضها من عقبات وصعاب، (فأولى لهم طاعة وقول معروف)»، مرة ثانية يطلب لنفسه الطاعة التي اختص الله بها رسوله الكريم وجعلها طريقاً إلى طاعته ومرضاته! ثم يكمل «وللقيادة في دعوة الإخوان حق الوالد بالرابطة القلبية، والأستاذ بالإفادة العلمية، والشيخ بالتربية الروحية، والقائد بحكم السياسة العامة للدعوة، ودعوتنا تجمع هذه المعاني جميعاً، والثقة بالقيادة هي كل شيء في نجاح الدعوات»، هل من الممكن أن تجتمع كل تلك المواهب في شخص واحد إلا إذا كان نبياً أو ولياً، هذا معتقد البنا في نفسه ولا شيء غيره.

تحرص الجماعة على تأكيد مكانة المرشد في عقول الأتباع المصبوغة برداء ديني تجعل منه صاحب قدرات فذة تستدعي لوناً من ألوان التقديس

أصحاب رسول الله وحملة رايته

ثم يكمل «ولهذا يجب أن يسأل الأخ الصادق نفسه هذه الأسئلة ليتعرف مدى ثقته بقيادته: هل تعرف إلى قائده من قبل ودرس ظروف حياته؟ هل اطمأن إلى كفايته وإخلاصه؟ هل هو مستعد لاعتبار الأوامر التي تصدر إليه من القيادة في غير معصية طبعاً، قاطعة لا مجال فيها للجدل ولا التردد ولا الانتقاص ولا للتحوير؟ مع إبداء النصيحة والتنبيه إلى الصواب؟ هل هو مستعد لأن يفترض في نفسه الخطأ وفي القيادة الصواب إذا تعارض ما أمر به مع ما تعلم في المسائل الاجتهادية التي لم يرد فيها نص شرعي؟» هل هو مستعد لوضع ظروفه الحيوية تحت تصرف الدعوة وهل تملك القيادة في نظره حق الترجيح بين مصلحته الخاصة ومصلحة الدعوة العامة؟».

ثم يسوق البنا مخاطبيه إلى النتيجة التي يريد الوصول إليها: «وبالإجابة على هذه الأمثلة وأشباهها يستطيع الأخ أن يطمئن على مدى صلته بالقائد وثقته به، والقلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء (لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم)»..

دائماً ثمة تعمد لإسقاط الآيات القرآنية التي تخاطب النبي وعلاقته بأصحابه على واقع الجماعة؛ ألم يخاطب البنا أتباعه في رسالة «الإخوان المسلمون تحت راية القرآن» بقوله «نحن أيها الناس ولا فخر أصحاب رسول الله وحملة رايته من بعده، ورافعو لوائه كما رفعوه، وناشرو لوائه كما نشروه، وحافظو قرآنه كما حفظوه، والمبشرون بدعوته كما

يتحدث البنّا عن المرشد باعتباره قائداً ملهماً وعن أتباعه باعتبارهم جنوداً وجيشاً تحت تصرفه لا عن دعوة دينية ولا حتى حزب سياسي تحكمه تقاليد الديمقراطية وتداول الرأي بين أنداد

بشروا ورحمة الله للعالمين (ولتعلمن نبأه بعد حين)، أيها الإخوان المسلمون هذه منزلتكم فلا تصغروا في أنفسكم فتقيسوا أنفسكم بغيركم، أو تسلكوا في دعوتكم سبيلاً غير سبيل المؤمنين، أو توازنوا بين دعوتكم التي تتخذ نورها من نور الله ومنهاجها من سنة رسوله، بغيرها من الدعوات التي تبررها الضرورات وتذهب بها الحوادث والأيام»!

ما لا يبنيه المرشد محكوم عليه بالفشل

يكشف نص مهم لأحد المحسوبين على هذا التنظيم، وهو المستشار طارق البشري الذي كتب في بداية السبعينيات كتاباً يستعرض بنية الحركة السياسية في مصر في الفترة من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٢، التي شهدت أوج نشاط الجماعة السياسي، عن جانب غامض من شخصية البنا في مواجهة ما يعطل تلك الثقة التي أرادها من أتباعه؛ إذ يظهر، كما يقول، في أحاديث المرشد العام تأكيده على الدور الشخصي الذي يقوم به ونظرته إلى نفسه على أنه محور الدعوة جماعةً وأعضاءً، وهو لا يطمئن لأمر إلا أن يبنيه بنفسه أو يشارك الإخوان فيه، حيث كتب يقول: «إن فرعي جمعية الإخوان بالمحمودية وشبراخيت سوف لا ينفعان كثيراً، لأنهما أنشئا بغير أسلوبي، ولا ينفع في بناء الدعوة إلا ما بنيت بنفسي»، يكمل البشري: «ومع هذا الحرص على أن يكون هو مصدر كل شيء، حاكماً بالفشل على ما يبنى بغير أسلوبه، ورافضاً الاعتماد على كل من كانت له أساليبه الخاصة، وعلى من نظر إليه نظرة الأنداد، كان المرشد يفقد الثقة في قدرة الآخرين على القيام بعمله أو مشاركته فيه؛ كان يرى أن الكل ضعاف ويشكو من أنه يجد نفسه بين ضعف الأمين وخيانة القوي»، وتعني هذه النظرة أن الأمين عنده هو الضعيف، وأن القوي مصدر للخطر وخبث مستتر، وهي نظرة يبدو أنها تلازم التسلط الشخصي.

تفتيت القوى المعارضة داخل التنظيم

وهذا اللون من ألوان الاستبداد الذي يتمسح بنصوص دينية جلب لا شك معارضة داخل التنظيم، واعتمد البنا في مواجهتها وفق ما يوضح البشري بتفتيت القوى المعارضة، وتوريط المعارضين في الأخطاء، وإظهار نفسه بمظهر البريء، المخدوع المعتدى عليه والعفوّ المتسامح مع المعتدين عليه، ويبدو أنه كان يستميل العواطف بهذا المظهر فقد

توحي استشهادات البنا القرآنية في كتاباته بأنه يطلب لنفسه الطاعة التي اختص الله بها رسوله الكريم وجعلها طريقاً إلى طاعته ومرضاته

كان حريصاً في مذكراته أن يرسم هذه الصورة لنفسه عند حديثه عن أي واقعة خلاف حدثت معه، وعندما لا تكون ثمة معارضة وتلتقط بذورها تباعاً، وعندما لا يكون ثمة أنداد وترتفع الهامة على سائر القرناء ويصير الباقون أتباعاً، وعندما تتجسد الدعوة في شخص يصير رمزاً لها ويمارس أعماله من خلال الآخرين، فترتد إليه فضائلهم ولا يبدو منه إلا الوجه الناصع والساعد القادر، ويتحمل الآخرون ما يثير النقد ويكشف الوهن، عندئذ يبدو الزعيم لا ككل الناس جمعاً للفضائل، وبراءةً من العيوب، وامتلاءً بالحكمة والكفاية والاقتدار، وعندما يمسك وحده بأطراف التنظيم فلا يصل خيط بين فردين ولا بين جهازين إلا عن طريقه، ويبدو قرين المعرفة يفوق البشر ويظهر إدراكه قرين الإلهام.

لقد بنى التنظيم الثقة في المرشد مستنداً إلى التعسف في فهم النصوص الدينية وإسقاطها على واقعه من جهة، ثم التوسل بالحيلة والمكر والدهاء السياسي لجعل ذلك ممكناً، وتمهيد نفوس الأتباع لقبول ما يخالف معتقداتهم وأفكارهم أو أعراف المجتمع أو قوانين الدولة بهدف التأسيس لثيوقراطية عتيدة، وهذا يفسر جانباً مهماً لسر صمود التنظيم وبقائه رغم تغير الأنظمة السياسية المتناقضة من ملكية وجمهورية.

3

خوارج من يعارضون التنظيم

تبقى أي منظمة قوية وبعافية ما ألزمت نفسها بقيم الديمقراطية وتداول الرأي، وانسياب المعلومات داخلها في كل اتجاه سواء من القيادة إلى الأعضاء أو العكس، وتبذل المنظمات جهداً متواصلاً في تطوير بنيتها ونظم العمل داخلها لكي تضمن هذا التواصل المستمر والفعال، ويصبح هذا واجباً إذا ما ادعت تلك المنطمة أنها تدعو للدين وتحرص على التقيد بآدابه، لكن جماعة الإخوان ببنيتها الأقرب إلى العسكرة أو التنظيم الأمني، تحرص دائماً على أن تبقى الصيغة الحاكمة هي: قيادة مطاعة وجنود لا يجيدون النقد أو طرح الأسئلة، ومن ثم تصبح فكرة بروز معارضة فكرة مستبعدة تماماً يتعامل معها التنظيم باعتبارها محاولة لشق الصف وتدمير الجماعة، ونعت أصحابها بأنهم يشبهون حال «المرجفين في المدينة»، في إشارة إلى المنافقين داخل الجماعة المسلمة الأولى، ممن يسعون لتدمير روح الجماعة وإشعارها بالهزيمة، وهي إسقاطات متكررة في واقع كل الجماعات الإسلامية، التي تتصور أنها الأمينة على وحي السماء، وأنها هي الجماعة المسلمة الباقية التي تواجه العداوات نفسها التي واجهتها الدعوة في صدر الإسلام.

جماعة الإخوان ببنيتها الأقرب للعسكرة تحرص دائماً على أن تبقى صيغتها الحاكمة: قيادة مطاعة وجنود لا يجيدون النقد أو طرح الأسئلة

ثقافة السمع والطاعة

وتحفل تفسيرات سيد قطب وحسن البنا بتلك المفاهيم التي ترسخ في نفوس الأعضاء أنهم الامتداد الحقيقي لجيل الصحابة، وأن كل نقد لسلوكهم أو أفكارهم أو حتى وسائلهم أو مناقشة لجدواها، أو الحديث عن المقارنة بين العائد والتكلفة في أي قرار، تعد لوناً من ألوان الفتنة، ويمكن رصد ذلك في كيفية تعامل البنا مع كل محاولة لمراجعته في قرار أو توجه، أو مناقشة لوائح أو نظم ليتبين رسوخ ثقافة السمع والطاعة، ورفض المعارضة أو التنوع الصحي للآراء.

وقد خالف كثيرون حسن البنا في توجهاته وقراراته، وكان من أهم تلك القرارات التي انعكست على مستقبل الجماعة: التحول من فضاء الدعوة والتربية، التي التحفت برداء صوفي في البداية فتح لها قلوب الكثيرين إلى فضاء التدافع السياسي وعسكرة الجماعة، عبر جناح مسلح يسمى في أدبياتها بالنظام الخاص المسؤول عن العديد من الجرائم في الأربعينيات، والتحول للعمل السياسي ومحاولة هدم شعبية حزب الوفد القوة السياسية الأكبر آنذاك، ومحاولة امتصاص فائض الطاقة في المجتمع المصري باتجاه فكرة دينية تزاحم الفكرة الوطنية، وتعبئ الطاقات بعيداً عن المعركة الحقيقة المشتعلة حول المطالبة باستقلال البلاد من الاحتلال الإنجليزي، والتي كان يتزعم النهوض بها حزب الوفد وغيره من القوى السياسية الأخرى..

اغتيال شخصية المؤسس الحقيقي للجماعة

كل هذا لم يرق لوكيل الجماعة ومؤسسها الحقيقي أحمد السكري الذي ضربت عليه دعاية الجماعة ستاراً كثيفاً بهدف إخفاء دوره الحقيقي في بناء الجماعة؛ حيث خالف حسن البنا في هذا التوجه مستحثاً إياه على دفع شباب الجماعة الراغبين في خوض غمار السياسة للعمل تحت مظلة حزب الوفد، تقويةً لهذا الحزب في مواجهة القصر والإنجليز، بدلاً من تفريغ طاقة الشباب وامتصاص حيويتهم في اتجاه خاطئ، أو حتى دفعهم لتقوية حزب آخر كالحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل إذا لم تكن الجماعة راغبة في الانخراط في حزب تتهمه بالعلمانية، لكن البنّا رفض أيضاً هذا المقترح واستبد برأيه على عادته، ولم ينسَ للسكري أنه خالفه في وقت مبكر من العام ١٩٣٩، وأنه ظل يعانده في كل توجه، فتولت ماكينة الدعاية السرية التابعة للبنا

بروز أي معارضة داخل الإخوان تعد فكرة مستبعدة تماماً يتعامل معها التنظيم باعتبارها محاولة لشق الصف وتدميره الجماعة

تشويه الرجل وإظهاره بمظهر الوفدي القديم الذي يحن لولائه الأول حتى تصبح مقترحاته متهمة ما انتهى إلى فصله من الجماعة.

ووفقاً للرواية الإخوانية في موسوعة الجماعة التاريخية الرسمية، فإنّ أسباب فصل السكري أنه شن هجوماً على المرشد البنا في مقالات صوت الأمة والكتلة، تتهمه بالاتصال ببعض الشخصيات الأجنبية، وهي اتهامات مرسلة لم يقدم السكري عليها دليلاً كما ذهب المصدر الإخواني، كما اتهم السكري البنا بالاستبداد في اتخاذ القرار، وهو أمر معلوم للجميع من سيرة الرجل، فقررت الهيئة التأسيسية التي شكلها البنا من أشخاص اختارهم توجيه اللوم إليه، واتخذت قرارات بإعفاء السكري -بالإضافة إلى كل من سالم غيث وعبدالسميع الغنيمي- من عضوية الجماعة، لما تعرفه الهيئة من تصرفات السكري واعتباره «مناقضاً للعهد، حانثاً باليمين، خارجاً على الجماعة، محارباً للدعوة» وكذلك كل من اتصل به وناصره.

كما أسهبت أدبيات نشرت في صحف الإخوان تلك الفترة في وصف السمات الشخصية «السيئة» للرجل، التي لم يعتبروها تجريحاً في شخصه، لكنها فقط -وفق رأيهم- تشرح وتفسر أسباب فصله من الجماعة، فهو لديهم رجل «محب للظهور والزعامة، يتجسس على مخاطبات البنا الشخصية، ويسرب للوفد وثائق الجماعة، كما أنه استغل الدعوة لأغراض شخصية»؛ وهي أمور كلها تدخل ضمن تكتيك دفاعي يلجأ له البنا في مواجهة من يعارضه أو ينتقد سلوكه أو آراءه، حيث يغتال مادياً كما جرى مع سيد فايز عبد المطلب الذي صفاه التنظيم الخاص العام ١٩٥٣، أو يغتال معنوياً عبر الدعاية الإخوانية المركزة التي برع الإخوان في استخدامها في مواجهة خصومهم أو من يستدرك عليهم من أعضاء الجماعة.

مذكرات البنا.. وشهد شاهد من أهلها

ويمكن في هذا السياق ملاحظة ما سجله البنا في مذكراته بشأن واقعة خلاف في الرأي والتوجه بينه وبين عالِم بالإسماعيلية عضو في التنظيم لم يذكره بالاسم، كان كما وصفه يحمل شهادة العالمية ويحسن قرض الشعر ويجيد الخطابة والقول، ويعرف كيف ينشر الدعوة ويتصل بالناس، هذا الرجل بتلك المواصفات كان المؤهل لأن يخلف البنا في إدارة الشعبة في الإسماعيلية، لكن البنا فضل عليه نجارا أسلس قياداً للبنا، فتعجل إجراءات انتخابه بعدما استبعد من الجمعية العمومية

يعتقد البنا أنه وجماعته هم الدولة التي يجب ان تطاع وأن أي خروج عليه من سلوكيات الخوارج

من يرى أحقية ذلك العالِم، الذي يقول عنه في موضع آخر من مذكراته بأن الشيطان تسلط عليه، وأنه لم يستجب لنصائح البنا الذي وصف ما جرى بأنه فتنة يقول «والواقع أن هذا المظهر كان جديداً وغريباً على أوضاع الإخوان التي لم تعرف إلا الوحدة الكاملة والاندماج التام»، ثم يردف في الحديث عن نوايا الفريق الذي تمرد على قرارته «وكنت أعلم من نفوسهم فوق ما أعلنوا.. ولقد كان الإسلام حكيماً أعظم الحكمة في وصيته بأخذ هؤلاء الخوارج على رأي الجماعة بمنتهى الحزم»، أي إنّه يصف معارضيه بالخوارج! ويكمل مستشهداً بحديث «من أتاكم وأمرُكم جميع يريد أن يشق عصاكم فاضربوه بالسيف كائنا من كان.. ولكنا تأثرنا إلى حد كبير بالنظم المائعة التي يسترونها بألفاظ الديمقراطية والحرية الشخصية، وما كانت الديمقراطية ولا الحرية يوماً من الأيام معناهما تفكيك الوحدة والعبث بحرية الآخرين».

من ذلك يمكن تبين أن البنا لم يخفِ حقيقة أفكاره في مذكراته التي لم يقرأها الكثيرون؛ هو يعتقد أنه وجماعته الدولة التي يجب ان تطاع وأن أي خروج عليه هو سلوك الخوارج، وهكذا تتحول كل معارضة إلى مؤامرة على الدعوة يتصدى لها الرجل واصفاً ذلك بأنه نتاج الهوى «ولكن النفوس إذا تمكن منها الهوى في ناحية فإنه يعميها عن الخير يصم آذانها عن الحق»، والخير يبقى هو المرشد وجماعته والحق هو ما يعتقده وحده، مؤكداً أن كل من يعارضونه «لا خير فيهم؛ فقد فقدوا إدراكهم لسمو الدعوة، وفقدوا إيمانهم لطاعة القيادة، ومن فقد هذين فلا خير فيه في صفنا».

ظلّ البنّا لا يثق سوى برأيه وبذوي الطاعة العمياء ولطالما أكد أنه يجد صعوبة باختيار الأتباع بالمواصفات التي يرضاها

القائد الأوحد

وظل البنا لا يثق سوى برأيه وبالأتباع الذين يتمسكون بطاعة عمياء، لذا كان صريحاً على تأكيد أنه يجد صعوبة في اختيار الأتباع بالمواصفات التي يرضاها «إنني أتمنى أن يكون إلى جانبي رجال يفهمون ويديرون، فأسلم إليهم هذا العمل وأرتاح بهم قليلاً وأطمئن إلى مقدرتهم، ولكن أين هم؟ إن الكثيرين لا يفهمون من مجلس الإدارة إلا كلمة العضوية، فهم يتنافسون على حيازتها، وتقع بينهم العداوة والبغضاء»، قائل هذا الكلام ظل مرشداً طوال حياته، ولم يضع منصب المرشد قيد التداول أو التغيير، وكرسته اللوائح التي كتبها هو لجماعته الخطيب والمدير الوحيد والقائد الذي يبرم ما يريد، بينما خلع بأريحية وصف الخوارج على من يخالفه في رأي أو تدبير، وكذلك مضت مسيرة جماعته؛ فهي الحق المبين، ومن يخالفها هم الخوارج الذين يستوجبون القتل لولا أن أحكام الإسلام تميعت في النفوس كما يرى المرشد المؤسس، هذا تصور الإخوان عن الديمقراطية؛ فكيف يمكن لأحد اليوم أن يتحدث عن تجربتهم الديمقراطية التي لم يكملوها!

4

المظلومية.. سلاح الجماعة المفضل

وحده الفاشل هو من يحرص على كسب تعاطف الآخرين، عسى أن يهرب من الاعتراف بخطئه متجنّباً اتهام نفسه بالتقصير أو دعوتها للمراجعة؛ فلم يكن مستغرباً أن تلجأ جماعة الإخوان إلى ارتداء ثوب المظلومية، الذي جرّبته غير مرة عبر تاريخها الصدامي الطويل مع الدولة والمجتمع حتى أضحى ثابتاً من ثوابت فكرها وسلوكها.

كيف يمكن التعاطف مع تنظيم يلجأ أعضاؤه إلى استخدام أسلوب الغدر والتّقية حتى مع من أحسنوا إليه!

استراتيجية تحويل الفشل إلى محنة

درجت الجماعة على تحويل كل فشل ترتكبه إلى «محنة»، وكل جزاء طبيعي لأفعالها إلى مظلومية تعيد تسويقها، في واقع المجتمعات التي تتعاطف مع من يقدم نفسه كمظلوم يتعرض لبطش الظالمين.

فى كل محطة من محطات صراع الجماعة مع الأنظمة السياسية والمجتمعات المختلفة سواء في مصر أو خارجها، كانت هي من دفعت عناصرها إلى أتون محرقة في سياق الصراع على السلطة، وادعاء الدفاع عن الدين ودولة الشريعة، ثم التباكي على ضحايا من ظلمها، والسعي لكسب التعاطف الذي يعبد طريقها لقلوب وعقول البسطاء تحت دخان المظلومية، كلما لاحت لحظة حساب أو مساءلة سواء من أعضائها أو من المجتمعات التي دفعت ثمن جرائمها وأخطائها.

مرت الجماعة بأربع أزمات يروق لها أن تسميها بالمحن الأربعة التي واجهتها باعتبارها حركة دينية طوباوية، تدعو الناس للخير وتجسد الامتداد الطبيعي للجماعة المسلمة ولصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما تدعي، وأن ما تواجهه هو لون من ألوان التمحيص الإلهي الذي يصدق فيه قوله تعالى «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين»، فدائماً ما تحرص الجماعة على أن تشهر النصوص المتعسَّفَ في فهمها وسياقاتها في وجوه أعضائها أو خصومها على حد سواء؛ خالطة بينها وبين الجزاء العادل أو الموافق لسلوك طريق خاطئ، أو الانخراط في سياسات طائشة، أو التورط في ساحات المنافسة السياسية «الدنيوية» دون امتلاك الأدوات أو المؤهلات اللازمة لذلك.

صعود النظام الخاص

إثر الأزمة الأولى التي يسميها الإخوان بالمحنة الأولى، وهي قرار حلها في الثامن من كانون الأول (ديسمبر) من العام ١٩٤٨ وسجن بعض أعضائها، لجأت إلى تصعيد عملياتها الإرهابية من تفجير وقتل وتخريب في مصر، متناسية أنّه قبل صدور هذا القرار وتحديداً في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) من العام نفسه، شرعت مجموعة من شباب الإخوان في إفراغ حمولة سيارة جيب من الأسلحة والذخيرة والأوراق الخاصة بخطط النظام الخاص (الميليشيا العسكرية التي بدأت نشاطها السري والتخريبي قبل ذلك بثمانية أعوام)،

تلجأ جماعة الإخوان لارتداء ثوب المظلومية الذي اعتادته عبر تاريخها الصدامي مع الدولة والمجتمع حتى أضحى من ثوابت فكرها

وأثناء قيامهم بذلك رصد حركتهم مخبر سرّي كان يقيم بالعقار الذي كانوا ينقلون له محتويات السيارة، فأبلغ الأجهزة الأمنية على الفور فتم القبض على بعضهم، وهو ما كشف حقيقة الجماعة كتنظيم سري عسكري له وجهان؛ الأول مدني يخدع الناس بالانضمام إلى حركة تريد الإصلاح، ثم يختار من بين الخلصاء منهم من يكون جزءاً من هذا الكيان التخريبي، فلم يكن لدى رئيس الوزراء آنذاك محمود فهمي النقراشي خيار آخر سوى حل هذا التنظيم، ورغم هذا السياق الطبيعي لحكومة تتخذ إجراءات طبيعية في مواجهة كيان سري يهدف إلى قلب نظام الحكم، ويتوسل بالعنف سبيلاً لذلك، واصل جرائمه التي وصلت حد اغتيال النقراشي.

كانت حيثيات تشكيل النظام الخاص كما يكشف خالد محمد خالد في مذكراته، تضم بنداً يتحدث عن قتال الذين يخاصمون الدعوة ويحاولون إعاقة سيرها، ويعلق خالد على ذلك «أسرف التنظيم في هذا السبيل إسرافاً كان السبب الأوحد في تدمير الإخوان من الداخل والخارج، وكان السبب الأوحد في فقد الإخوان أثمن ما يملكون، حياة الأستاذ المرشد الذي ذهب في معركة ثأر شرسة وضارية».

يكشف الرجل جانباً آخر لم يتحدث عنه كثيرون، ويهدم فكرة المظلومية التي يتسربل بها الإخوان، «كان التنظيم السري بارعاً في التنكر، فهو بعد تدريب أعضائه على كل أفانين الإرهاب يأمر بعضهم أن يلتحق ببعض الأحزاب أو الجماعات، حتى إذا اختير لعمل من أعمال الاغتيال أو الإرهاب لم يبد أمام القانون ولا الرأي العام من أعضاء الإخوان، ناهيك عن أعضاء التنظيم السري ذاته!».

كيف يمكن التعاطف مع تنظيم يلجأ أعضاؤه إلى استخدام أسلوب الغدر والتّقية حتى مع من أحسنوا إليه؛ إذ إنّ الشاب الإخواني الطالب بالطب البيطري عبد المجيد أحمد حسن، كان أحد المطلوب اعتقالهم وشطب النقراشي اسمه من الكشوف بخط يده، وكان أبوه قبلها موظفاً بالداخلية ولمّا مات قرر رئيس الوزراء تعليم ابنه بالمجان، هذا هو الذي جاءت نهاية النقراشي على يديه.

أسدلت الجماعة بالدعاية ستاراً كثيفاً على أعمالها الإرهابية، بينما ملأت الدنيا وما تزال صراخاً وعويلاً حول ظلم الحكومات التي تتهمها دائماً بالتربص بالإسلام ودعاته، فكان حلّ التنظيم الإرهابي ومقتل قائده مآلاً طبيعياً لسلوك مسار العنف الذي انتهجه،

درجت الجماعة على تحويل كل فشل ترتكبه إلى «محنة» وكل جزاء طبيعي لأفعالها إلى مظلومية تعيد تسويقها

ولم يكن محنة إلهية لجماعة فرغت للعبادة والدعوة والتزكية والإصلاح كما تزعم.

محاولة فرض الوصاية على الضباط الأحرار

جاءت أزمة آذار (مارس) ١٩٥٤ باعتبارها المحطة الثانية التي يطيب للجماعة أن تسميها المحنة الثانية، وهو نهج تسير عليه إثر كل فشل أو تورط لها في الجريمة يستتبع رد فعل طبيعي يتحول عندها إلى محنة هي سبيل أصحاب الدعوات في كل عصر ومصر.

حاول الإخوان فرض وصايتهم على الضباط الأحرار وفرض شروطهم، ودعموا محمد نجيب في صراع بحت على السلطة لم يكن انحيازاً لديمقراطية ولا يحزنون، وتوسلوا في سبيل ذلك بكل ألوان الكيد، وتركوا النظام الخاص يرتع حتى تورط في قتل أحد قياداته بطرد مفخخ، فضلاً عن محاولته قتل قائد الثورة جمال عبدالناصر في حادثة المنشية الشهيرة العام ١٩٥٤، وليس محاولة واحدة كما ادعت أدبيات الجماعة؛ بل حاولت عبر خلاياها في الجيش والشرطة تنظيم انقلابات، لكن علم عبدالناصر بخريطة التنظيم وقواعد بيانات عناصره في الجيش والشرطة مكّنه من إجهاض كل تلك المحاولات، التي مضت متوازية بين فعل مسلح وسياسي مناهض ودعاية سوداء مركزة ضد النظام الجديد، رغم أنّ الجماعة التي حاولت أن تحكم مصر في تلك الآونة رفضت المشاركة في الحكم وقبول حقيبة وزارية في أول حكومة للثورة.

قطب وتجهيل المجتمع

ولمّا لاحت فرصة للتطبيع مع المجتمع وأعطاهم عبدالناصر فرصة ثانية، وبدا أنّ الدولة تنطلق في مطلع الستينيات، تهيأت موجة جديدة للإرهاب داخل الجماعة تمثلت في سيد قطب وتنظيمه، الذي جسدت أفكاره في التكفير والمفاصلة مع الأنظمة واتهام المجتمع بالجاهلية، تياراً جهادياً عنيفاً كان المنهل الذى نهلت منه كل حركات التطرف والتكفير والعنف حتى اليوم.

نُفّذ حكم الإعدام بسيد قطب وقيادات تنظيمه العام ١٩٦٦، وكان الأجدى تركهم أحياء في السجون حتى تموت أفكارهم ولا يتحولوا إلى «شهداء وقديسين» قدّم موتهم ذريعة لاصطناع مظلومية جديدة تغذت عليها الجماعة من جديد لعقود.

داء سوء تقدير الموقف

أما أحداث فض اعتصام رابعة العدوية،

في كل محطات صراعها على السلطة تدفع الجماعة عناصرها لأتون محرقة بادعاء الدفاع عن شرع الله ثم تتباكى على ضحاياها

فلقد كانت مظلومية جديدة تستحضر في مواجهتها ما جرى من إخوان سورية في أحداث حمص وحماة بداية الثمانينيات، لتشرح لنا خيار سيزيف الإخواني؛ يقول د.عبدالله النفيسي في كتابه «الحركة الإسلامية رؤية مستقبلية»، إنّ الإخوان تورطوا في تحريض الناس على المواجهة العسكرية مع الحكومة السورية، وعندما زهقت أرواح ٣٠ ألفاً نفض مكتب الإرشاد العالمي يده من الأمر، وأخذ يبرر ويتلعثم ويسقط كل إخفاقاته على النظام، متسائلاً كيف تجيز قيادة الجماعة لنفسها المطالبة بمحاسبة المسؤولين عن هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ التي بلغ ضحاياها ١٢ ألف جندي، ولا تقبل بمحاسبة نفسها على جريمة وهزيمة حماة ١٩٨٢ التي ذهب ضحيتها أطفال ونساء وشيوخ وشباب، لقد كان سوء تقدير الموقف -كما يقول النفيسي- داء بارزاً في ممارسات مكتب الإرشاد، مؤكداً أنّ ما جرى كان جريمة ارتكبتها قيادة الإخوان.

هذا ذات ما ارتكبته القيادة القطبية لجماعة الإخوان في مصر عندما راهنت على أنّ اعتصاماً مسلحاً، قادر على كسر إرادة المجتمع والدولة التي عندما فضّته مدفوعة بهيبتها وحفظاً للنظام العام، ونجم عن ذلك قتلى وضحايا، حاجج الإخوان بأنّ أعداد القتلى فاقت ألف نفس لم يكن من بينهم قيادة إخوانية واحدة! وهو الأمر المتكرر في كل مقتلة تدفع الجماعة أبناءها إليها؛ فدور أفراد القواعد أن يموتوا ثم تتاجر قياداتهم بدمائهم، وتصنع منها مظلومية جديدة في سبيل إطالة عمر الجماعة.

5

أنْ تدخل في «دين الإخوان»

ترق الالتزامات التي يفرضها «تنظيم الإخوان» على أعضائه، ولا يقبل منهم الإخلال بها، لأن تكون ديناً خاصاً جديداً؛ فحتى تكون صاحب عضوية كاملة في الجماعة، لن يكتفي منك بإقامة فرائض الدين وسننه الثابتة المعروفة، لكنْ يجب أن تفهم الإسلام كما يفهمه الإخوان؛ ديناً يطلب الحكم ويسعى إليه من أول لحظة، متحلياً بأخلاق التنظيم وأفكاره ومقولاته مصبوباً في قالب خاص صنعته أفكار حسن البنا، من خلال ما تضمنته أدبيات التنظيم، ومنها أركان البيعة العشرة في «رسالة التعاليم» التي يتقدمها ركن الفهم، وقد مدحها مفتي الجماعة محمد عبدالله الخطيب، الذي شغل لسنوات طويلة منصب مسؤول التربية في الجماعة، بقوله «إنّ رسالة التعاليم بقواعدها تجمع المسلمين وتجعلهم جسداً واحداً وفهماً واحداً، وتنمي بل وتثري حياة كل من رغب في العمل للإسلام..، تنمي فكره وتجدد فهمه الصحيح للإسلام»، وأنّ هذه التعاليم تدفع المسلم إلى الأمام «بعيداً عن الجدل والفلسفة التي لا طائل من ورائها..»، وتعمل، وفق تعبيره، على تجديد الشخصية الإسلامية العاملة المجاهدة وتضعها في إطارها الصحيح «الإطار الذي تتمثل فيه الإسلام عقيدة وفكراً وأخلاقاً وسلوكاً والمجتمع الذي يلتزم ويقتنع بالإسلام كنظام وشريعة وحياة نزل بها الوحي من عند الله».

ترقى الالتزامات التي يفرضها تنظيم الإخوان على أعضائه ولا يقبل منهم الإخلال بها لئن تكون ديناً خاصاً جديداً

ابتداع تصور «جديد» للدين

خلف هذا التقريظ البلاغي تكمن أفكار الدين الجديد الذي شرحه البنا وبنى قواعده لأتباعه بقوله «إنما أريد بالفهم أن توقن بأنّ فكرتنا إسلامية صميمة، وأن تفهم الإسلام كما نفهمه في حدود هذه الأصول العشرين»؛ فقد أضاف البنا إلى أصول الدين المعروفة بعض ما نقله عن علماء كالشاطبي والقرافي، دون أن يتجشم عناء ذكر ذلك لأتباعه أبداً، إذ حرص على أن يكرس صورة الملهم الموهوب الذي يعرف ما يعرفه العلماء وينظر كتنظيراتهم.

وبعيداً عن بعض الأصول التي نقلها البنّا عن غيره التي خلط به الغث بالثمين كعادته، من المهم الإشارة إلى بعض الأصول التي ميزت تصور الإخوان عن هذا الدين وأولها «الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً، فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء وهو مادة وثروة أو كسب وغنى وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء»، بتأمل هذا التعريف الجديد للدين الذي ظل فقهاؤنا يعرفوه بأنه عقائد وشرائع وأخلاق، يمكن ملاحظة حجم المفردات المشغولة بالدولة والحكم التي حرص على أن تأتي في مترادفات، تزدحم بمعانيها نفوس الإخوان وتبقى باعثاً دائماً

بتأمل التعريف الجديد للدين الذي وضعه البنّا يمكن ملاحظة حجم المفردات المشغولة بالدولة والحكم

وهستيرياً في التصور والسلوك، ولم يأتِ البنا في هذا الأصل على ذكر الأخلاق أبداً؛ إذ أسقط هذه الكلمة أو ما يرتبط بها؛ فالتنظيم سيرسخ بالممارسة منظومته الأخلاقية الخاصة، التي تصب فقط في طريق الوصول إلى الحكم؛ فالغاية تبرر الوسيلة دائماً لدى التنظيم، الذي سيكذب أعضاؤه ويخونون ويخدعون في سبيل ما يسمى بالدعوة.

بتأمل التعريف الجديد للدين الذي وضعه البنّا يمكن ملاحظة حجم المفردات المشغولة بالدولة والحكم

طرح البنّا في هذا الأصل ما يسمى بالشمولية التي خلطت بين المفهوم والممارسة؛ فالإسلام لا شك منظومة قيمية متكاملة تعطي ثمارها لمن يبحث عنها، لكنه لم يأتِ أبداً بنظرية في الحكم أو الإدارة، فهذه مساحة التجربة البشرية المفتوحة، التي تعني الحكمة التي تبقى ضالة المؤمن التي أنّى وجدها فهو الأحق بها، والدليل أنّ الإخوان عندما وصلوا إلى حكم مصر لم يقدموا جديداً؛ بل عزفوا على منوال غيرهم وقدموا أسوأ نموذج في الحكم والإدارة، ولأن أتباع دين الإخوان سيكونون جنوداً للقائد الأعلى الذي هو المرشد العام للإخوان في ولاية الفقيه السنية التي يدعون إليها، فيجب أن يطيعوه كما يطيعون ولي الأمر الشرعي ونائبه مهما خالفت أوامره ما يعرفونه من خلق أو دين (الإمام هنا هو البنا ونائبه هو شقيقه عبد الرحمن الساعاتي) يقول البنا في شرح الأصول العشرين «ورأي الإمام ونائبه فيما لا نص فيه وفيما يحتمل وجوهاً عدة، وفي المصالح المرسلة معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية».

أصناف الناس بالمنظور الإخواني

يبدو البنا في النص السابق حريصاً على جعل طاعته وطاعة نائبه واجباً يتعبد الناس به دون أن يشير إلى مبدأ الشورى، فتتحول أمور السياسة والحكم وطريقته إلى حكم ديني خالص طاعة الأمام فيه من طاعة الرسول وطاعة الله، وقد فصل الإخوان في ذلك في غير موضع، منها ما يقوله البنا في «رسالة دعوتنا» عن أصناف الناس «وكل الذي نريده من الناس أن يكونوا أمامنا واحداً من أربعة، مؤمن أو متردّد أو نفعي أو متحامل»؛ فالأول مدعو أن يبادر بالانضمام إلى الإخوان حتى يكثر به عدد المجاهدين كما يقول، أما الثاني فعليه أن يتصل بهم عن كثب «فسيطمئن بعد ذلك لنا إن شاء الله وكذلك كان شأن المترددين من أتباع الرسل من قبل»!

عندما وصل الإخوان إلى حكم مصر لم

أضاف حسن البنّا إلى أصول الدين المعروفة بعض ما نقله عن علماء كالشاطبي والقرافي دون تجشم عناء ذكر ذلك لأتباعه أبداً

يقدموا جديداً؛ بل عزفوا على منوال غيرهم وقدموا أسوأ نموذج في الحكم والإدارة

أما الثالث فهو النفعي فيقول له «إننا مغمورون مالاً وجاهاً ولن نعطيك شيئاً سوى ثواب الله إن أخلصت، والجنة إن علم الله فيك خيراً»، كأن الرجل يوزع بذلك صكوك غفران! أما الرابع فهو المتحامل وفقاً لكلامه الذي يسدر في شكوكه ويظل مع أوهامه، ثم يختم بقوله «نحب أن يكون الناس معنا واحداً من هؤلاء.. ويعمل إلى هذه الوجهة حتى يصل إلى الغاية (يعني الحكم طبعاً)، أما تلك الغفلة السادرة والخطرات اللاهية والانصياع الأعمى واتباع كل ناعق فما هو من سبيل المؤمنين في شيء».

أصناف الناس التي وضعها البنّا لا مكان من بينها للمسلمين ممن لم يشاركوه للتصور الذي يطرحه للدين

هكذا انتهت أصناف الناس في مواجهة دين البنّا الذي عليهم أمامه إما أن يكونوا من المؤمنين به أعضاء في صفوفه، أو يكونوا مترددين في قبول دينه أو متحاملين أو نفعيين؛ فلا مكان من بينهم للمسلمين ممن لم يشاركوه هذا التصور الذي يطرحه، وقد يرتقي ذلك لأن يكون تكفيراً ضمنياً مقابل التكفير الصريح الذي حفلت به نصوص سيد قطب في ظلاله ومعالمه! لكن المؤكد أنّ البنّا يطرح تصوره باعتباره هو الدين الصحيح دون غيره، وهو ما يؤكده بقوله «نحن ندعو الناس إلى مبدأ واضح، والفرق بيننا وبين قومنا بعد الاتفاق بهذا المبدأ أنه عندهم إيمان مخدر نائم في نفوسهم لا يريدون أن ينزلوا على حكمه، أو أن يعملوا بمقتضاه، على حين أنّه إيمان ملتهب مشتعل قوي يقظ في نفوس الإخوان المسلمين».

يكشف البنا عن نزعته الفوقية واحتكار جماعته للدين الصحيح والمقياس الذي تقاس به وحده شرعية الأفكار والقيم والسلوك

إن هذه التزكية لأعضاء الجماعة أورثت استعلاء على الخلق، وشعوراً بالوصاية عليهم، وادعاء امتلاك الحق المطلق، وهو ما يعززه مجدداً في فقرة من مذكراته بقوله: «فأحب أن أقول لكم هنا وبكل وضوح، إنّ دعوتكم هذه أسمى دعوة عرفتها الإنسانية، وإنكم ورثة رسول الله وخلفاؤه على قرآن ربه، وأمناؤه على شريعته، وعصابته التي وقفت كل شيء على إحياء الإسلام.. وإذا كنتم كذلك فدعوتكم أحق أن يأتيها الناس

ولا تـأتي هـي أحـداً، وتسـتغني عـن غيرهـا؛ إذ هـي جمـاع كل خـير ومـا عداهـا لا يسـلم مـن النقـص ..، فمـن مـد لكـم يـده عـلى أساسـه فأهـلاً ومرحبـاً في وضـح الصبـح أخـاً يعمـل معكـم، ويؤمـن إيمانكـم وينفـذ تعاليمكـم، ومـن أبى ذلـك فسـوف يـأتي الله بقـوم يحبهـم ويحبونـه»، هكـذا دون مواربـة يكشـف البنّـا عـن نزعتـه الفوقيـة ودينـه الخـاص، وجماعتـه الـتي تحتكـر الديـن الصحيـح والمقيـاس الـذي تقـاس بـه وحـده شرعيـة الأفـكار والقيـم والسـلوك دون عـداه.

6

انتظار تعليمات القيادة المصطفاة

كثيراً ما يُثار التساؤل حول سرّ تبني تلك الجموع من الأطباء والمهندسين وأساتذة الجامعات وغيرهم، ممن تبدو عليهم مسحات من العقل والنباهة أفكار جماعة الإخوان ومشروعها، لكن يزول هذا الاستغراب المشروع عند قراءة بعض أدبيات الجماعة التي تقف وراء سر تلك المأساة التي تكررت في أقطار مختلفة.

راكمت الجماعة خبرات حركية وتنظيمية مكنتها من ابتداع طريقة للتجنيد تعتمد غزو القلوب بمراحل محكمة

العصبة المختارة

تظن الجماعة أنها عُصبة المؤمنين المختارة من الله لإقامة الخلافة على الأرض التي ستملأ الدنيا قسطاً وعدلاً، لتصل بعدها إلى مرحلة أستاذية العالم حين تجلس أمم الأرض في موضع التلميذ من المعلم الملهم تنظر إليه في إكبار وتقدير، والجماعة لا تلقي هذا الكلام دون خطط أو أفكار واضحة؛ فقد شرحت أدبياتُها خطتَها في الوصول إلى هذا الهدف بوضوح وحسم، حين حددت مراحل عملها بسبع مراحل، تبدأ بإعداد الفرد، فالأسرة، فالمجتمع، فالحكومة، فالدولة، فالخلافة، فأستاذية العالم.

حجر الزاوية إذاً في هذا المشروع هو تهيئة الفرد الإخواني لتبنّي مقولات ووسائل الجماعة التي اصطفاها الله، والجماعة باعتبارها مختارة من الله فهي أيضاً تختار عناصرها عبر برنامج تجنيد خطير، يعتمد غزو القلوب وأسْر العواطف سبيلاً لتعطيل العقول وتسليم القياد سمعاً وطاعة تامة لقيادتها.

لا ينتسب أحد لجماعة الإخوان بقرار عقلي محض، يأتي عقب تقليب الأفكار والمبادئ والبرامج التي تدعو لها، لكن النتيجة أنه ينتظم في صفوفها ويصبح جندياً يسمع ويطيع لقيادة التنظيم، التي تحرص بالمقابل على تكريس صورتها في وعي الأفراد كأولياء صالحين لله جمعت عقولهم الملهمة أدب الدنيا والدين.

تنطلق الجماعة في رؤيتها لنفسها من حقيقة اطمأنت لها، تقول إنّ جماعة المسلمين ليست موجودة في عالمنا اليوم، وإن إيجادها هي مهمة مقدسة انشغلت بها العديد من الجماعات الدينية التي ظهرت في القرن الأخير، وقد سوّق الإخوان لتلك الفكرة عبر ترويج بعض كتابات جمال الدين الأفغاني، حول التناقض بين الدين والوطنية، والخلط بين ضرورة الدولة ونظام الحكم العادل والخلافة كمرحلة تاريخية لنظام حكم له وعليه، لكنها اختارت هذا الإطار العاطفي سبيلاً لتعبئة المشاعر والقلوب لتحوز الحكم من خلاله

عندما يتيقن العضو أنّ «الإخوان» هي الجماعة الأولى بالاتباع يعطيها ولاءه التامّ بعدما أضحى عضواً مختاراً في «جماعة مختارة»

تظن الجماعة أنّها عُصبة المؤمنين المختارة من الله لإقامة الخلافة على الأرض التي ستملأ الدنيا قسطاً وعدلاً

في النهاية، باستلال فكرة من بطون التاريخ وتسكينها في الواقع.

ومن ضمن الكتابات التعبوية التي استخدمتها الجماعة في هذا السبيل، كتاب «الطريق إلى جماعة المسلمين» لمؤلف مغمور يُدعى حسين بن جابر تم تسويقه ضمن أدوات التجنيد لأفكار الجماعة خصوصاً في أوساط الخليج العربي، الذي يحتفي بهذا اللون من الكتب المترعة بالنصوص والآثار التي تقنع القارئ بموضوعه الذي يدور حول أنّ «جماعة المسلمين أو الحكومة الإسلامية العامة في صورة جماعة المسلمين غير موجودة، وإيجادها فرض عين على الأمة الإسلامية كافة حتى توجد، وهو فرض عصرها حتى تقوم تلك الدولة العامة التي يغطي سلطانها كافة الأقطار الإسلامية، ومن العمل على إيجادها الكتابة عن الطريق إليها على قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

صدّر المؤلف بحثه بكلمة وردت على لسان الخليفة عمر بن الخطاب تقول إنه «لا إسلام إلا بجماعة ولا جماعة إلا بإمارة ولا إمارة إلا بطاعة»، والخلط واضح بين ضرورة وجود إطار لأي أمة وحاكم شرعي يحكمها ويسيّر أمورها؛ حيث لا تنتظم أحوال الناس إلا في ظل نظام يرعى شؤونهم بالعدل، وقد مضت التجربة الإسلامية بين نبوة خالطها حكم ثم خلافة خالطتها نبوة، حتى أضحت ملكاً وراثياً ظل يدّعي الشرعية، ثم حكم عسكري، وظلت كل تلك الأنماط تدّعي الصلة بوحي السماء وجلال النبوة.

انتقال الحكم بين بهاء النبوة واجتهاد الخلافة وولاية العهد في نظام وراثي ضاعت معه معالم نظام ثابت يمكن الاحتجاج به أو الدعوة إليه؛ حيث مضت تجارب الحكم منسجمة مع تطور العمران البشري وتحديدها زمنياً دون الاستبداد بالحكم، وتحت مظلة المواطنة التي تحفظ للجميع حقوقهم في دولة لا تميز بين بنيها على أساس ديني أو عرقي، لم نقدم نحن المسلمين لا بالنظرية ولا بالتجربة إطاراً صارماً يضمن حقوق الناس، ويحقق لهم الرفاه والعدل، ومع ذلك بقيت جماعات تدعى أنها تملك التصور الأنقى والأرقى والأكمل.

تعدد الجماعات باطل

التنوع هو سمة كل الحضارات المعتبرة والسنة الإلهية «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين»، تلك السنّة الراسخة تعتدي عليها الجماعة وتنصب نفسها

يزعم الإخوان أنّ تعدُّد الجماعات في الأمة الإسلامية باطل، والواجب أنّ تصبّ جهود الأمة كلها في قالب واحد

مبعوث العناية الإلهية الذي يتبرم حتى بمن يعملون معه؛ يقول حسين بن جابر في كتابه «وتعدُّد الجماعات في الأمة الإسلامية باطل يجب أنّ يزول، والواجب في اعتقادي أنّ تصبّ جهود الأمة كلها في قالب واحد وفي اتجاه واحد، ذلك القالب الذي يجب أنّ ينطوي تحته كل فرد عامل لإعادة الخلافة الإسلامية».

هذا هو ما صنعته الجماعة بصب أعضائها في قالب واحد ينتظر تعليمات القيادة المختارة، وهو الشخص المختار الذي يخاطبه البنا في كتابه «مذكرات الدعوة والداعية» قائلاً: «فأحب أنْ أقول لكم هنا بكل وضوح إنّ دعوتكم هذه أسمى دعوة عرفتها الإنسانية، وإنكم ورثة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وخلفاؤه على قرآن ربه، وأمناؤه على شريعته وعصابته التي وقفت كل شيء على أحياء الإسلام، في وقت تصرفت فيه الأهواء والشهوات، وضعفت عن هذا العبء الكواهل، وإذا كنتم كذلك فدعوتكم أحق أنّ يأتيها الناس ولا تأتي هي أحداً، وتستغني عن غيرها إذ هي جماع كل خير، وما عداها لا يسلم من النقص».

خبرات متراكمة في التجنيد

لكن الفكرة المركزية التي سعى لها الكاتب وجماعته، أنّ الإخوان الجماعة المختارة من الله التي استكملت شرائط الجماعة الأولى بالاتباع والنصرة، وأن طاعتها وطاعة مرشدها من طاعة الله، بعدها تأتي الجماعة لتختار عناصرها من بين الأغنى والأسلس قياداً، وقد راكمت الجماعة خبرات حركية وتنظيمية مكنتها من ابتداع طريقة للتجنيد، تعتمد غزو القلوب أيضاً عبر مراحل سبعة، تبدأ بالتعرف الدقيق على الشخص المرشح ودراسة كل دقائق حياته واكتساب صداقته وثقته، حتى يصبح المجنَّد يحظى بثقة المدعو يعود إليه في كل شيء، ويصبح مصدر توجيهه.

ثم يخطو إلى مرحلة تُسمى في أدبيات التنظيم بإيقاظ الإيمان المخدَّر في الصدور؛ أي تكريس شعور دائم بالتقصير والرغبة في استدراك هذا النقص، عبر التزود من

ما صنعته الجماعة أنّها صبت أعضاءها في قالب واحد ينتظر تعليمات القيادة المختارة

يزعم الإخوان أنّهم استكملوا شرائط الجماعة الأولى بالاتباع والنصرة وأن طاعتهم وطاعة مرشدهم من طاعة الله

العبادات والشعائر التي تخلق في نفس الشخص شعوراً بالتطهُّر والاستغراق في تلك الحالة، فيعاجله الداعية بأن العبادة مفهوم أشمل من طقوس الصلاة والصوم وتلاوة القرآن، وأن الفهم الصحيح للدين أنه دين حكم وسياسة، كما هو دين خلق وعبادة، وأن هذا الدين يواجه مؤامرة من الداخل والخارج، وأنه مسؤول عن نصرة دينه، وأن الكيد لهذا الدين جماعي، لذا يجب أنْ تكون نصرته أيضاً في جماعة، لكن من هي الجماعة الأولى بالاتباع؟ إنها تلك التي تأخذ بشمول الوسائل والغايات جماعة الإخوان، التي صنعت لها تلك الصورة مؤلفات مثل «الطريق لجماعة المسلمين»، و«ماذا يعني انتمائي للإسلام» لفتحي يكن وغيرها الكثير، وعندما يتيقن العضو أنها هي الجماعة الأولى بالاتباع يعطيها ولاءه التامّ، بعدما أضحى عضواً مختاراً في جماعة مختارة، لتبدأ مأساة شخص وتبتلع الجماعة وقوداً جديداً لحركتها العبثية.

8

كل شيء في سبيل الحكم

تحت عنوان «فكرة الإخوان المسلمين تضم كل المعاني الإصلاحية» كتب حسن البنا في رسالة المؤتمر الخامس، واصفاً جماعته بأنها «دعوة سلفية، وطريقة سنية، وحقيقة صوفية، وهيئة سياسية، وجماعة رياضية، ورابطة علمية ثقافية، وشركة اقتصادية، وفكرة اجتماعية»، محاولاً تقديم الجماعة بصورة هيئة إسلامية جامعة، كما نعتها لاحقاً مرشد الإخوان السابع محمد عاكف، الذي رفض إخضاع الجماعة لقانون الجمعيات الأهلية، باعتبار أنّ مجال عملها أوسع من ذلك.. وهو ليس إلا الوصول إلى الحكم.

رفض محمد عاكف إخضاع الجماعة لقانون الجمعيات الأهلية بحجة أنّ مجال عملها أوسع من ذلك

جماعات جاهزة للقطاف

عندما أسّس البنا جماعة الإخوان كانت الساحة المصرية تعج بشتى الهيئات والمؤسسات التي تعمل في كل الساحات، واختار أن يخترقها مجتمعة عبر استهداف جمهور أعضائها، كان البنا يعتقد أن جماعته ستلتهم كل الكيانات وتوجه مسارها في خدمة مشروعه، كأنه يستحضر صورة النبي موسى -عليه السلام- وقد استحالت عصاه حية تلتهم كل الحيات الصغيرة.

سبقت الإخوان في الوجود والتأثير جماعات سلفية مثل: الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة التي أنشأها الشيخ محمود محمد خطاب السبكي العام ١٩١٢، وجمعية أنصار السنة المحمدية ومؤسسها الشيخ محمد حامد الفقي العام ١٩٢٦، وغيرهما من الجمعيات السلفية التي انشغلت بطبع أنصارها بالطابع السلفي في الهدي الظاهر والباطن، ونجحت في تكوين قاعدة كثيفة من الأتباع، كان يراها البنا الأقرب للتعبئة في اتجاه مشروع يرفع راية تطبيق الشريعة واستعادة الخلافة، لذا كان حرصه على أن يصف جماعته بأنّها «دعوة سلفية» ليستقطب أتباع تلك الجماعات، ويكونوا وقوداً جاهزاً تملؤه الحماسة الدينية لحركة جماعته نحو الحكم.

أما مؤسسة الأزهر التي كانت قاعدة أهل السنة والجماعة، وتحظى بثقة جماهير غفيرة تنحاز للسنة وتحرص عليها، فقد حرص البنا على أن يخاطبها أيضاً مقدماً جماعته باعتبارها

وصف البنا دعوته بالسلفية لقناعته أن أعضاء الجماعات الإسلامية التي سبقته الأقرب للتعبئة باتجاه مشروعه

طريقة سنية، يتقدم لقيادة أفرادها من يقدم نفسه باعتباره ناصر السنة ومميت البدعة، عبر هيئة وخطاب حرص على تكريسهما في سلوكه وهيئته.

جريمة القعود عن المطالبة بالحكم

عند التأمل في هذه الفئات السابقة التي حرص البنا على استهدافها سنجد أنها ترجمة دقيقة لطوائف المجتمع الأكثر حضوراً مرتبةً، بحسب الوزن النسبي والتأثير؛ فالسلفيون يأتي بعدهم جمهور الأزهر، ثم مباشرة أرباب التصوف، حيث اختار البنا هذا الثوب في بداية ١٠ أعوام من تأسيس الجماعة ليستقطب من خلاله هذا الجمهور الصوفي الواسع، ورغم أنّ الصوفية تعني طهارة الباطن والزهد في متاع الدنيا، وبالتالي يفترض أن يمضي كل ما يتعلق بها من وسائل وأذكار في هذا السبيل، نجد عجباً في الآية التي اختار أن يصدر بها ورد الإخوان اليومي من المأثورات، أو ما سمّاه ورد الرابطة بين أعضاء جماعته؛ حيث وجههم إلى أن يتلو كل منهم تلك الآية بخشوع وتدبر شديدين، ويتذكر صورة من غاب عنه من إخوانه ممن يعرف أو لا يعرف، فماذا كانت تلك الآية التي يفتتح بها العضو ما يحقق فيه قيم التجرد والتخفف من الدنيا والزهد فيها؟

إنها الآية الكريمة: «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي، وترزق من تشاء بغير حساب».

هل كان الاختيار لهذه الآية تحديداً محض صدفة، أم أنّ البنّا يريد أن يرسخ في نفوس أفراده أنّ الحكم «فريضة» آثم من لا يسعى لها، وهو ما عبر في المؤتمر الخامس للإخوان بقوله: «فإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يكفرها إلا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من أيدي الذين لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف. هذا كلام واضح لم نأت به من عند أنفسنا، ولكننا نقرر به أحكام الإسلام الحنيف».

أخلاق الكيد والخديعة

ولأنّ الحكم بهذه المحورية، فكل الدول الحديثة نظّمت الوصول له عبر انخراط من يريد في حزب سياسي، وبما أنّ الساحة المصرية في ذلك الوقت كانت تعج بالأحزاب ذات الشعبية والتاريخ، كحزب الوفد الغريم التاريخي للإخوان وأعلم الناس بحقيقته، فقد اختار

الفئات التي حرص البنا على استهدافها ترجمة دقيقة لطوائف المجتمع الأكثر حضوراً حسب وزنها النسبي والتأثير

البنا في التعبير عن بعض خصائص جماعته كلمة «هيئة سياسية» وليس حزباً سياسياً؛ إذ كان يسمي الأحزاب «سيئة العصر».

إلا أنّ مؤسس الإخوان كان في حقيقة سلوكه وأهدافه مجرد حزب يريد الوصول إلى السلطة، ليس عبر الطريق الشرعية الواضحة، ولكن بالكيد والخديعة والتقية على الجميع؛ بل وتربية الأتباع على الكذب؛ وليس أدل على ذلك من رواية الدكتور حسان حتحوت الذي انضم للإخوان المسلمين العام ١٩٤١ علي يد حسن البنا نفسه؛ إذ يقول في كتابه «العقد الفريد: عشر سنوات مع الإمام حسن البنا ١٩٤٢-١٩٥٢» حول المعركة الانتخابية في الإسماعيلية بين حسن البنا وسليمان عيد مرشح الوفد: «كان اهتمام الإخوان بهذه الانتخابات كبيراً وانتقل خمسة عشر ألفاً من الإخوان إلى الإسماعيلية، ... قسمنا أنفسنا إلى مجموعات من ثلاثة تجوب الشوارع، وكلما مرت بأحد أو مر بها أحد من الأفراد أو الجماعات، قال أحد الإخوان بصوت مسموع وكأنه مستغرق في الحديث مع زميله « قلت له صحيح سليمان عيد قريبي، لكن سأنتخب حسن البنا»!

ثقافة ضائعة بين القوة والمال

ولأنّ حسن البنا يعرف أنّ أداة التأثير الأكبر في أي منافسة على الحكم هي القوة، فقد اختار بمكر أن تكون تلك الجماعة الرياضية، كما وصف جماعته، فرقاً من الجوالة تتدرب على الرياضة كمرحلة، قبل اكتشاف النظام الخاص، أول ميليشيا عسكرية في القرن العشرين في مجتمع مسلم، استخدمت العنف في الوصول لأهدافها تحت عنوان نصرة الدين.

أما وصف البنا لجماعته بأنّها رابطة علمية ثقافية فهو أعجب تلك الأوصاف في الحقيقة؛ إذ إنّ أهم ما يميز الجماعة أنها جيش من الأتباع، يرى العالم بعيون المرشد وبطانته، فلا يقرأ إلا ما يريدون، ولا يعقل إلا ما يعقلون، لكن لأنّ الرجل لا يريد أن تفلت منه شريحة من شرائح هذا المجتمع، فقد كان حريصاً على أن يضم لأوصاف الجماعة هذا الوصف؛ فحسبما يرى في رسالة المؤتمر السادس فإنّ «أندية الإخوان هي في الواقع مدارس للتعليم والتثقيف، ومعاهد لتربية الجسم والعقل والروح»، التي لم تكن سوى قشرة رقيقة حرقتها أضواء الحكم ثم لهيب ثورة الناس عليهم في ٣٠ (يونيو) ٢٠١٣.

يلحق البنا الاقتصاد بخصائص الجماعة؛ فيصفها بأنّها شركة اقتصادية، في إدراك مبكر منه لأهمية المال للعمل السياسي، وضمن حزمة الوسائل اللازمة طريقاً للحكم، لذا عبر شبكة من الجمعيات الخيرية والشركات الصغيرة والكبيرة، تضخمت خزانة الإخوان، وطورت الجماعة عبر خبرات حركية كيفية تأمين تلك الأموال، التي ذابت فيها حدود أموال البر وأموال السياسة خدمةً لمشروع الجماعة في الوصول للحكم.

9

تكفير يوجب الوصاية على المجتمعات

يظلّ تكفير المجتمعات أُولى جرائم الإخوان التي فتحت الباب أمام غيرها، ليس آخرها ولادة كيانات متطرفة اليوم تستقي من هذا المنبع الفكري المنحرف كالقاعدة وداعش، وإن أخذ هذا الخطاب صيغة مواربة، كعهد الإخوان دوماً، يحوم حول هذا المعنى بطريقة أو بأخرى كما فعل حسن البنّا في مؤلفاته وسيد قطب في كتابه «معالم في الطريق»، ما يترتب عليه فرض الوصاية على هذه الأمة باسم هدايتها من الضلال.

حرص الإسلام على تزكية أتباعه بالعبادات والذكر لكنه حذّرهم من أن يقعوا ضحية لتزكية النفس والاستعلاء

الإخوان المسلمون يتحلون في مواجهة الجميع بنرجسية لا تخطئها عين

الاستعلاء على الناس

حرص الإسلام على تزكية أتباعه بكل ألوان العبادة والذكر، لكنه حذّرهم في الوقت نفسه من أن يقعوا ضحية لتزكية النفس أو الاستعلاء على الخلق بعبادة أو ذكر، وقد حفظت لنا كنوز الأثر قول العارف بالله ابن عطاء الله السكندري «رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً».

لكن بعض الجماعات التي ادعت طويلاً الانتصار لحقائق هذا الدين تورطت في هذا السلوك البغيض، الذي قادها في النهاية لتكفير المجتمعات والوصاية عليها، وهو ما فعلته جماعة الإخوان؛ حيث استعلت على المجتمعات وزكّت أتباعها، معتقدة أنّها وحدها من تمثل بفعلها وسلوكها حقيقة الدين، ما جعل الإخوان يتحلون في مواجهة الجميع بنرجسية لا تخطئها عين، فهم وحدهم من يرون سنن هذا الكون، وهم من يعرفون واقع المجتمعات، وهم الأعرف بحقيقة الدين ومقاصده، وهم الأقدر والأجدر بعلاج المجتمع من أدوائه، وهم الذين يتطابق في وعيهم الدين والتنظيم، يبقى هذا أثراً لأفكار حسن البنّا الذي يخاطبهم في رسائله قائلاً «واذكروا جيداً أيها الإخوان أنّ الله قد منّ عليكم، ففهمتم الإسلام فهماً نقياً صافياً سهلاً شاملاً كافياً وافياً، يساير العصور، ويفي بحاجات الأمم ويجلب السعادة للناس، بعيداً عن جمود الجامدين وتحلل الإباحيين وتعقيد المتفلسفين، لا غلوّ

لم يبق شيء من مشاهد الحياة لم يكفره قطب ضمناً فكان حاسماً سافراً في طرح ما يراه حلاً

فيه ولا تفريط مستمداً من كتاب الله وسنة رسوله وسيرة السلف الصالحين، استمداداً منطقياً منصفاً بقلب المؤمن الصادق وعقل الرياضي الدقيق».

عضو الإخوان هنا يصبح وحده من أدرك حقائق الإسلام ففهمها بقلب المؤمن الصادق وعقل الرياضي الدقيق، عبارات مُراوِغة تتفادى الحكم السافر على المجتمع؛ بل تلجأ إلى المناورة بالألفاظ بالتمييز بين الإخوان والمجتمع، في تزكية صريحة للإخوان مقابل تكفير ضمني لغيرهم ممن لا يشاركهم هذا التصور.

مصادرة إيمان المجتمعات

البنّا في فقرة أخرى يؤكد على محاكمة إيمان المجتمعات مقابل تزكية إيمان الإخوان، الذي لا يمنعهم الشماتة في أي ضرر يصيب تلك المجتمعات، فيرون العدوان الثلاثي انتقاماً إلهياً من هذا المجتمع الكافر الذي صمت على قمعهم، ووضعهم في السجون العام ١٩٥٤ بعد محاولتهم اغتيال عبدالناصر، كما يرون نكسة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ جزاءً وفاقاً لما أصابهم من دولة عبد الناصر الكافرة في ١٩٦٥، لقد بذر تلك البذرة حسن البنّا فأثمرت في قلوبهم الحقد على هذا المجتمع واحتقاره، عندما زكّى إيمانهم، بينما ذمّ إيمان هذا المجتمع واحتقره، يقول في رسالة «دعوتنا» تحت عنوان (إيمانان) «والفرق بيننا وبين قومنا بعد اتفاقنا في الإيمان بهذا المبدأ، أنه عندهم إيمان مخدر نائم في نفوسهم لا يريدون أن ينزلوا على حكمه ولا أن يعملوا بمقتضاه، على حين أنه إيمان ملتهب مشتعل قوي يقظ في نفوس الإخوان المسلمين».

إيمان نائم أو ميت هو إيمان المجتمع، مقابل إيمان حي مشتعل في نفوس الإخوان وحدهم؛ حين يترسخ هذا المعنى في نفوس الإخوان يشعرون بلون من ألوان الاستعلاء على هذا المجتمع، ويعتقدون بضرورة الوصاية عليه وصاية العالم على الجاهل أو العاقل على المجنون، أو من استكمل الأهلية تجاه فاقد الأهلية، والمجتمع لديهم فاقد لأهلية القيادة يحتاج إلى من يقوده باسم الله، وهم يلجأون في خطاب البنا إلى التقية والمخاتلة، خصوصاً أنّ الصف لم يكن قد استكمل عدده وعدته بعد، في نهاية الأربعينيات قدّرت سيتون وليامز في كتابها «بريطانيا والدول العربية» أعداد الإخوان ما بين ٣٠٠ ألف إلى ٦٠٠ ألف عضو، بينما أشار غيرها إلى أعداد تصل إلى مليون عضو، وهو ما أغرى سيد قطب بإعلان موقف الجماعة

كان تكفير الإخوان للمجتمع هو الفكرة التي سادت أوساط التنظيم، وسكنت أدبياته متشحة كالعادة بتقية حرصت عليها الجماعة

بوضوح أكثر تجاه المجتمعات عندما شعر بقوة التنظيم ليقول في كتابه «معالم في الطريق»: «نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم، كل ما حولنا جاهلية، تصورات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم، حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية، ومراجع إسلامية وفلسفة إسلامية وتفكيراً إسلامياً هو كذلك من صنع هذه الجاهلية»، هل بقي شيء من مشاهد الحياة لم يكفره قطب، وقد كان حاسماً سافراً في طرح ما يراه حلاً لتلك المجتمعات الجاهلية الكافرة، بأن تنشأ أو تقوم طليعة مسلمة ملتزمة بمنهج الحركة الإسلامية، تتجرد من كل مؤثرات الجاهلية وضغط المجتمع الجاهلي وتصوراته وتقاليده!

تكفير متشح بالتقية

كان تكفير الإخوان للمجتمع هو الفكرة التي سادت أوساط التنظيم، وسكنت أدبياته متشحة كالعادة بتقية حرصت عليها الجماعة، وكرسها حسن البنا بخطاب مخاتل، تغير ذلك مع سيد قطب الذي كان سافراً وصريحاً في الحكم على المجتمعات، لذا بعدما تغلغلت أفكار التكفير لدى الإخوان عندما تمكنت أفكار سيد قطب من الصف الإخواني، أدرك بعض قيادات الإخوان هذا الخطر، فحذفوا أكثر من سبعين صفحة من كتاب لمحمد الصروي أحد المتهمين في تنظيم ٦٥ لأنه كان يوثق أفكار التكفير، ولم يستبقوا من تلك الصفحات سوى سبع تم تنقيحها لتخفي أفكار التكفير الصريح، حتى كتاب حسن الهضيبي «دعاة لا قضاة» ظل عنوانه يشي بحقيقة اعتقاد الجماعة تجاه المجتمع، الذي رغم تكفيره يرون أن تحول إلى ساحة للدعوة للإسلام؛ حيث أراد الإخوان أن يقولوا دعنا من تكفير المجتمع؛ لأن الأمر يحتاج إلى قضاة يحكمون بكفر هذا أو ذاك، ولكننا دعاة إلى

الإخوان يدركون أنّ التمكن من الحكم أمر يصطدم بعوامل معقدة لذا تدرّجوا في الكشف عن نواياهم وخطواتهم

الإسلام؛ فهل يتصور أن يدعو أحد للإسلام في مجتمع مسلم.

لقد أفصح الإخوان عن نواياهم تجاه هذا المجتمع في رسالة لحسن البنا، خاطب فيها رئيس الوزراء مصطفى النحاس لما قدمه باعتباره إصلاحاً لحال الدولة والمجتمعات؛ حيث كان يرى القضاء على الحزبية ليكون نظام الحزب الواحد الشمولي، كما اتّجه إلى الوصاية على النظام الاجتماعي عبر مراقبة كل الشرائح في المجتمع، طارحاً صيغة أقرب لمحاكم التفتيش، تراقب سلوك الموظفين ولا تفصل بين الناحية الشخصية والناحية العملية، فضلاً عن بنود أخرى كمراقبة دور التمثيل وأفلام السينما، والتشديد في اختيار الروايات والأشرطة، وتهذيب الأغاني واختيارها ومراقبتها والتشديد في ذلك، ومصادرة الروايات المثيرة والكتب المشككة المفسدة، والصحف التي تعمل على إشاعة الفجور وتستغل الشهوات استغلالاً فاحشاً.

كل تلك المطالب كانت مقدمة للون بغيض من ألوان السيطرة على المجتمع، وممارسة أقصى درجات السيطرة على عقله ووجدانه، ليبقى خاضعاً لتنظيم اعتقد أنّ بإمكانه أن يصادر قيم التنوع والتطور البشري، ليعيد الناس إلى العصور الوسطى وظلاميتها متصوراً أنّ هذا هو الإسلام الصحيح.

إنّ التأمل في واقع دولة داعش يقرب للأذهان ملامح دولة الإخوان، غير أنّ الإخوان كانوا يدركون دوماً أنّ التمكن من حكم دولة أو بناء خلافة أمر يصطدم بعوامل معقدة؛ لذا تدرّجوا في الكشف عن خطواتهم، ولم يصرحوا بكل أفكارهم وتصوراتهم تجاه هذا المجتمع الذي مارسوا بحقه تلك الوصاية على مقدراته وحكمه بالصورة التي شهدتها مصر عبر عام من حكمهم قبل السقوط.

10

إذا سرق فيهم الشريف تركوه

تنظر الشريعة التي نزل بها الإسلام إلى الناس بمنظار العدل، وأن حدود الله ومحارمه يعاقب من ينتهكها كائناً من كان، مصداقاً لقوله، صلى الله عليه وسلم، «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد».

جماعة الإخوان المسلمين تسامحت مع كل خطأ أو جريمة ما دامت تقترفها قيادات الصف الأول

قيادات «معصومة»

لكن بعض الجماعات التي تدّعي الصلة بوحي السماء وترفع شعارات نصرة الدين والأخلاق والشريعة، تريد أن تطبق على غيرها القوانين دون قيادتها «المعصومة»، والأبرز في هذا المجال جماعة الإخوان المسلمين التي تسامحت قياداتها مع كل خطأ أو جريمة، ما دامت تقترفها قيادات الصف الأول، التي بدت محصَّنة ضد العقاب أو المساءلة حتى لو ارتكبت أفظع الأوزار والخطايا.

لم تقف جرائم الجماعة عند الأخطاء السياسية، أو خلط الدين بالسياسة أو الاختباء خلف الشريعة للوصول للحكم، وخداع البسطاء بشعارات تحكيم الشريعة والتمكين لقيم الدين، أو تقسيم المجتمعات وإطلاق الفوضى في ربوعها؛ بل تورّطت بعض قياداتها في جرائم مرّت دون حساب، وظلّ سيف الجماعة لا يطال سوى من ينتقد أخطاءها أو جرائمها، أو من يطرح أية صيغة للتصويب أو الاستدراك.

صندوق الجماعة المغلق لم يكشف بعد كل تجاوزات قيادات التنظيم الذي يعتبر القيادة هي الجماعة، وأنّ أية مؤاخذة لشخص القيادة هي مؤاخذة وتخطئة للجماعة المعصومة التي لا تخطئ؛ بل ذهب البعض منهم إلى أنّ الجماعة إنْ أخطأت تُنصَر بأخطائها، تماماً كما نُصرت الأمة بعد غزوة أحد في مسلسل لا ينتهي من الإسقاطات الباطلة على تاريخ الإسلام الذي يعتقد الإخوان أنّهم ورثته الحصريون.

تورطت بعض قيادات الجماعة بجرائم مرّت دون حساب وظلّ سيفها لا يطال سوى من ينتقد أخطاءها أو جرائمها

مغامرات صهر البنّا

فى العام ١٩٤٥ يوم كانت جماعة الإخوان هي الأكبر ضمن الأحزاب السياسية والجماعات الدينية، بدأ بعض أعضاء الجماعة ممّن ينتمون إلى شعبة عابدين يتداولون حكايات هامسة عن مغامرات نسائية لوكيل الجماعة عبدالحكيم عابدين صهر المرشد العام حسن البنّا؛ حيث اتّهم بانتهاك شرف أسرة إخوانية وممارسات غير أخلاقية تحت ستار التزاور بين الأسر الإخوانية، فبادر البنّا إلى تشكيل لجنة للتحقيق في الأمر، ولخّص تقرير رفعته للمرشد العام نشر لاحقاً في جريدة «صوت الأمة» لسان حزب الوفد؛ حيث انتهت اللجنة المشكلة من أربعة ممّن كلفهم البنّا بالتحقيق في الأمر، أنّها لم تستطع تحديد المسؤولية بشكل قاطع (من المعروف في مثل تلك الاتهامات أنّ الأمر يحتاج شرعاً إلى شهود أربعة وتفاصيل يصعب إثباتها حتى أمام القضاء)، لكنها رأت أنّه انسجاماً مع ما توفر لها من معلومات فقد اطمأنت إلى أنّ عابدين مذنب، خصوصاً أنّه اعترف لبعض أعضاء اللجنة، لكن اللجنة لم تفصل تلك الاعترافات، ورأت فصل عابدين من الجماعة، وقد وقع على التوصية قيادات بوزن أحمد السكري، وكيل الجماعة، ود.إبراهيم حسن، الوكيل الثاني، وأفضى التصويت إلى فصل عابدين بموافقة ٨ مقابل رفض واحد هو حسن البنّا.

المفاجأة الصادمة أنّ الأمر انتهى بفصل عضو اللجنة أحمد السكري واستقالة إبراهيم حسن احتجاجاً على هذا التمييز والعدوان على القيم والأخلاق.

الواقعة أكدها محمود عبدالحليم فى كتابه «الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ» وهو من الكتب التي أرّخت للجماعة، وإن حاول حصر المسألة في مساحة الشبهات التي ردّدها البعض عن عبدالحكيم عابدين حسداً من بعض الأسر على عابدين لمصاهرته البنّا، وبالطبع لم يذكر عبدالحليم شيئاً عن اللجنة وما آلت إليه الأمور بعد ذلك.

أما صلاح شادي أحد كبار الإخوان فقد سجل فقرة في كتابه «صفحات من التاريخ» تشير بوضوح إلى تلك الواقعة؛ إذ يقول «شهدت أحداثاً اتهم فيها بغير دليل قاطع أحد أقطاب الجماعة بتهمة تمسّ الخلق والسلوك، وأسفر التحقيق عن براءته من تلك التهمة وإن لم تعفه من اللوم (كان البنّا قد اكتفى بتوجيه لوم خجول لصهره دون أن يعاقبه بشيء)، لكنني عجزت عن المواءمة بين

انتهت فضيحة صهر البنّا بفصل عضو حقق في القضية واستقالة آخر احتجاجاً على التمييز والعدوان على القيم والأخلاق

إكباري لأحد أقطاب الإخوان وبين اللمم الذي نُسب إليه، واستوحشت نفسي من الإمام الشهيد حسن البنّا»!

سرقات دون حساب

وإذا كان البعض لم يحاسب على سرقة الأعراض، فلن يحاسب آخرون على نهب الأموال، المتمثلة باشتراكات الأعضاء وقد كانوا من ملايين حول العالم يظنون أنّها توجَّه لنصرة الدين؛ فلم يكن مشهد سطو بعض قيادات الإخوان في الخارج على أموال بعض فضائيات التحريض التي انطلقت في أعقاب ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣ في مصر، سوى مشهد متكرر لسرقة قيادات لأموال الجماعة دون أن يحاسبهم أحد، فالأمر يجري تسويته دائماً في غرفة مغلقة تضمّ عدداً لا يتجاوز أصابع اليد يسمّون الأمانة العامة برئاسة المرشد ونائبيه وعضوين من الموثوق في ولائهم، لذلك لم يكن غريباً أن تمرر جريمة أحد هؤلاء الأعضاء الخمسة.

نائب المرشد العام جمعة أمين عبدالعزيز الذي توفي في لندن في أعقاب هروبه من مصر قبل ثورة ٣٠ يونيو وكان يُسمّى حارس الأصول في إشارة إلى أفكار البنّا الرئيسة، رفضت الجماعة التحقيق في اتهامات بالجملة وجهت له بالاستيلاء على أموال الإخوان المسلمين بالاسكندرية، وقد لاحقته تلك الاتهامات قبل اندلاع ثورة ٣٠ يونيو مباشرة، ورفض المكتب الإداري للجماعة بالإسكندرية الذي كان يرأسه مدحت الحداد شقيق عصام الحداد مستشار مرسي للشؤون الخارجية التحقيق في الأمر.

وتقدم عدد من القيادات بمذكرات تتهمه بالاستيلاء على أموال الجماعة من مدارس وشقق وشاليهات عبر ما قيل إنّه عمليات نصب وانتهاكات خطيرة.

في سبيل سمعة الجماعة

صدرت تعليمات شفهية لقيادات الجماعة بإسدال ستار من السرية حول الأمر، حتى لا يعرف الرأي العام بالموضوع رغم أنّ الكثير من أموال الجماعة يتمتع بها ورثة بعض القيادات، خصوصاً أنّ تدبير الجماعة اتجه إلى تأمين أموال الجماعة عبر وضعها في عهدة بعض القيادات كما لو كانت أموالاً خاصة بهم.

وفي محاولة يائسة لوقف سرقة أموال الجماعة عبر بعض قياداتها، دارت مفاوضات وصفتها مصادر إخوانية بأنّها كانت شاقة للحصول على نصيب الجماعة من ثروته،

رفضت الجماعة التحقيق في اتهامات بالجملة وُجّهت لنائب المرشد بالاستيلاء على أموال الإخوان المسلمين بالإسكندرية

التي كان يتصرف فيها باعتبارها ملكية خاصة؛ حيث اكتشفوا اختلاس نصف مليون جنيه من أرباح مدرسة المدينة المنورة الخاصة بمنطقة السيوف بالإسكندرية، التي أنشئت في العام ١٩٨٧ بمشاركة القيادي خالد داود الذي استقال لاحقاً، ومحمود شكري رئيس المكتب الإداري بالإسكندرية سابقاً.

رفض جمعة أمين تسليم أوراق تثبت أحقية الجماعة في المدرسة التي تبلغ قيمتها ٥٠ مليون جنيه؛ حيث اكتشفت الجماعة أنّ بحوزته فضلاً عن المدرسة دار نشر وشقة فاخرة، رغم أنّه يتقاضى مرتباً شهرياً يتجاوز ٣٥ ألف جنيه، إلا أنّه رفض الاعتراف بحقوق الجماعة، واشترط أن يكتب جزءاً من المدارس كوقف خيري مدى الحياة يدفع منه مرتبات شهرية لأبنائه من بعده، وهو الشرط الذي رفضته لجنة سرية كالعادة تفاوضت معه، وانتهى الأمر بقرار من محمد بديع المرشد العام بإغلاق الموضوع بدعوى حماية سمعة الجماعة وهيبتها بين أعضائها.

تاريخ الجماعة حافل بمثل تلك المشاهد، لكن ستار السرية الكثيف الذي تفرضه كان كافياً لحجب الكثير من الحقائق عن بسطاء الناس المخدوعين فنجحت قياداتهم في أن يتخفّوا طويلاً خلف مظهر التقوى الزائف بعد أن أدمنوا الكذب حتى على أنفسهم.